أهمية العقل وأثره في تلقي الصحابة للسنة

م.م. صبحي طه ياسين

المقدمة

الحمدلله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، إمام المتقين، وخاتم النبيين، وخيرته من خلقه أجمعين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين، وإخوانه من النبيين والمرسلين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسائر عباد الله الصالحين .

أما بعد ..

لا شك أن الله سبحانه وتعالى خلق الجن والإنس ليعبدوه قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكلفهم سبحانه ليعبدوه وتوج ذلك التكليف بالعقل لأنه مناط تكليفهم ولم يجعل تحقق العبادة بذلك العقل وحده بل جعلها معلقة بالرسل، فقال سبحانه : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[البقرة: ٣٨] فلا تتحقق تلك العبادة إلا بإتباع الهدي الذي يأتي عن طريق الرسل ؟ .

وقد سار الصحابة رضي الله عنهم والتابعين من بعدهم على هذا المنهج منقادين ومستسلمين لنصوص الكتاب والسنة النبوية فلم يعارضوا نصا برأي أو عقل، كما لم يقبلوا قول أحد مهما كان شأنه إذا كان مخالفا للكتاب والسنة، ثم ما لبثت أن تجاسرت العقول على نصوص الوحي وظهرت الانحرافات مبتدأة بالاستبداد بالعقل وجعله سلطانا على نصوص الوحي من الكتاب والسنة .

ولا شك أن هذا التطاول والانحراف الخطير كان له أثرا كبيرا وفي غاية الخطورة نتج عنه رد كثير من الأحاديث النبوية الشريفة مستندين الى ما تفرزه عقولهم المريضة وحجتهم في ذلك أن هذه النصوص من السنة النبوية لا تتماشى مع العقل والحس والإدراك والمشاهدة، علما أن العقل السليم لم يعارض يوما النص الصحيح. وأرى بأن هذا النهج قد ظهرت آثاره على كثير من المسلمين لا سيما طلبة العلم الشرعي متأثرين بمن قبلهم من أصحاب الانحرافات الباطلة، ولو استمعت لأحدهم وهو يناقش بعض الأحاديث ليفسرها حسب رأيه وعقله ثم يقوم بردها لأصابك الذهول من ذلك الأمر.

وهذا كله لا يخدم الدين الإسلامي بل العكس فإنه يخدم مخططات أعداء الإسلام ولا يمكن القضاء على مثل أفكار هؤلاء وأمثالهم إلا بالعودة والتمسك والتعظيم لسنة الحبيب النبي(ﷺ) وعدم الاستهانة بها، لأن السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد كتاب الله جل وعلا، ولا يمكن للدين أن يكتمل ولا الشريعة أن تتم إلا بأخذ سنة النبي(ﷺ) جنباً الى جنب مع كتاب الله تعالى. ولقد جاءت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول(ﷺ) الى الأمر بطاعة رسول الله(ﷺ) والتمسك بسنته والاحتجاج بها إضافة الى ما ورد من إجماع الأمة وأقوال الأئمة في إثبات حجيتها ووجوب العمل بها. وأن العمل بما جاء به المصطفى (ﷺ) يتطلب منا السير على سنته والاقتداء بهديه والابتعاد عن البدع وهوى النفس، وعدم تقديم ما ترجحه العقول على النصوص الشرعية القرآنية والنبوية . وكذلك أرى أن هناك كثير من المفاهيم الخاطئة التي إعتاد عليها الناس وبعض أهل العلم وهي مخالفة تماما لمفهوم السنة النبوية واستندوا في ذلك على ما رجحته عقولهم من مفاهيم خاطئة مبتعدين كل البعد عن منهج الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا مع مكانتهم ورجاحة عقولهم وسعة فهمهم وإدراكهم فإنهم لم يردوا نصا أشكل عليهم برأيهم أو بما تؤول اليه

عقولهم بل كانوا يتبادرون الى سيد الخلق(ﷺ) ليبين لهم هذا الالتباس ويزيل الأمر الذي أشكل عليهم .

سبب اختياري للبحث

أما الأسباب التي أدت بي لاختيار كتابة هذا البحث فتتمثل بالآتي :

أولا – لا شك أن السبب الأول لاختياري لهذا البحث هو الدفاع عن سنة الحبيب المصطفى(ﷺ) لأسجل موقفاً أمام الله (عز وجل) ونبيه(ﷺ) مدافعاً عن النصوص الصحيحة والحسنة المدونة في كتب أهل السنة والجماعة متصديا الى تلك الأيادي التي تتقاذف نصوص الشرع لتجعل من العقل سلطانا وحاكما عليها.

ثانيا – بيان أن نهج أصحاب فكرة تسييد العقل وجعله حكما لرد بعض أحاديث السنة النبوية هو نهج خاطئ وخطير لا يخدم سوى أعداء الإسلام الذين يتربصون به ليل نهار لينالوا منه.

ثالثا – هنالك حاجة ماسة لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عند الناس من وجود تعارض بين الشرع والعقل لاسيما عند بعض طلبة العلم الشرعي وبعض المثقفين من هذه الأمة.

رابعا – صعوبة إقناع شريحة المثقفين بالمفهوم الصحيح لبعض الأحاديث وحجتهم في ذلك ما تمليه عقولهم من آراء خاطئة بل ومهلكة في بعض الأحيان.

منهجي في البحث

أما المنهج الذي سرت عليه في هذا البحث فيتمثل بالآتي:

١- قمت بإيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وعزوت الآيات الى سورها مرقمة والأحاديث الى مصادرها.

٢- ذكرت أهم أقوال وآراء العلماء المتعلقة بحقيقة العقل وأهميته وعلاقته بالشرع وأثره في تلقي الصحابة ومن جاء بعدهم للسنة النبوية المطهرة .

٣- جعلت للبحث مقدمة بينت فيها مقاصده وأسباب اختياره وخطة البحث.

٤- اعتمدت في دراسة هذا البحث على الكتب الآتية:

-الكتب الخاصة بتفسير القرآن الكريم

-الكتب الخاصة بمتون الحديث

-الكتب الخاصة بالعقيدة

خطة البحث

أما الخطة التي سرت عليها في هذا البحث فتتمثل بالآتي :

قمت بتقسيم البحث الى مقدمة ومبحثين وخاتمة:

أما المقدمة فقد بينت فيها سبب اختياري للموضوع، وخطة البحث، ومنهجي فيه، ثم الخاتمة التي أوجزت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها مع قائمة بالمصادر التي تضمنها البحث .

المبحث الأول : فكان بعنوان "العقل حقيقته وأهميته وعدم تعارضه مع الشرع"

وقد قسمته على أربعة مطالب:

المطلب الأول : حقيقة العقل ووظيفته

المطلب الثاني : تباين الأقوال في العقل

المطلب الثالث : لمكانة العقل وأهميته بالإسلام

المطلب الرابع فبينت فيه أن : الشرع والعقل غير متعارضين.

المبحث الثاني : فكان بعنوان " العقل وانقياده للشرع وموقف الصحابة والسلف الصالح منه"

وقد اشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول أن: انقياد العقل للشرع،

المطلب الثاني تطرقت الى: موقف الصحابة من الشرع والعقل

المطلب الثالث بينت : موقف السلف الصالح من الشرع والعقل

ثم **الخاتمة** التي بيَّنتُ فيها خلاصة جهدي المتواضع ، حيث عرضت فيها النتائج التي توصلت إليها.

وأخيـــراً أسأل الله العلي القدير أن يمنَّ علينا بالإخلاص بالقول والعمل، إنه سميع مجيب الدعاء .

المبحث الأول
العقل حقيقته وأهميته وعدم تعارضه مع الشرع

ويتضمن أربعة مطالب

المطلب الأول : حقيقة العقل ووظيفته

المطلب الثاني : تباين الأقوال في العقل

المطلب الثالث : مكانة العقل وأهميته بالإسلام

المطلب الرابع : الشرع والعقل غير متعارضين

المطلب الأول

حقيقة العقل ووظيفته

أولا : حقيقة العقل

العقل غريزة لا يعرف إلا بأفعاله في القلب والجوارح ولا يقدر أحد أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله[(١)]، وهو صفة قائمة بنفس الإنسان التي تعقل، وأما من البدن فهو متعلق بالقلب لقوله تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الحج: ٤٦][(٢)].

ثانيا : وظيفته

العقل شرط في معرفة العلوم، وفي الأعمال وصلاحها، وبه يكمل الدين، وهو قوة في النفس كقوة البصر، إن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل

---

(١) يُنظر : ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه : للحارث بن أسد المحاسبي، أبي عبدالله ، المحقق: حسين القوتلي : دار الكندي ، دار الفكر – بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٣٩٨ ، ١/ ٢٠٤ ..

(٢) يُنظر : مجموع الفتاوى : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، المحقق: عبد بن محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ ، ٣٠٣/٩.

به نور الشمس، وإن انفرد لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها[١]، والعقل نور جعله الله في قلب الإنسان ليكشف له عن الأشياء الموجودة والحقائق الواقعة وليفهم به عن الله ورسوله(ﷺ)، فلو أردت منه أن يريك كل ما تحبه وتتخيله من المعدومات فلا يجد إلى ذلك سبيلاً [٢].

المطلب الثاني

تباين الأقوال في العقل

لقد تباينت أقوال الناس وأحكامهم في العقل ودلالته على الحق ، وذهب فيه كل منهم مذهباً .

فأهل الكلام والفلسفة جعلوا العقل من أصول العلم وجعلوا الوحي تابعاً له، بل حكموه في نصوص الوحي فلا يقبل منها إلاَّ ما أيده العقل ووافقه ويدفع منها ما عارضه وخالفه ، وكثير من المتصوفة يذمون هذا العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال والمقامات لا تكون إلاَّ مع عدم وجوده، ويصدقون بما يكذب به صريح العقل ويمدحون الأمور التي تؤدي الى زواله كالسكر والجنون[٣].

وظن الأولون أن دلالة الكتاب والسنة قاصرة فقط على الأخبار المجردة الخالية من الدلالات العقلية، وهذه الأخبار موقوفة على العلم بصدق المخبر ، ويجعلون ما يبني عليه صدق المخبر معقولات محضة [٤].

---

(١) يُنظر المصدر أعلاه ، ٣ / ٣٣٨ ، ٣٩٩.

(٢) يُنظر : العقل والنقل عند ابن رشد : لأبي أحمد محمد أمان بن علي جامي علي ،الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ،الطبعة: السنة الحادية عشرة – العدد الأول – ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ١/٧٧.

(٣) يُنظر : مجموع الفتاوى ٣/ ٣٣٨ ، ٣٣٩.

(٤) يُنظر : درء تعارض العقل والنقل : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله ابن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ، تحقيق: الدكتور محمد رشاد : جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية ،ط٢، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م ، ١ / ٢٨.

قلت : فهؤلاء عظموا عقولهم وقدسوها وأخضعوا لها نصوص الوحي ، فالحق عندهم ما جاءت به ، والباطل ما رفضته ، وجردوا كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) عن الدلائل العقلية ، بل جعلوا الشرع والعقل ضدين بينهما العداوة والتنافر .

وأما الذين عطلوا عقولهم وقيدوها، وذموا العقل وعابوه فهؤلاء ذمهم الله تعالى، ووصفهم بأنهم شر الخليقة في الأرض، وذلك في قوله تعالى :﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الأنفال: ٢٢].

ولذا كان جوابهم يوم القيامة عندما يطرحون في النار :﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾[الملك: ١٠] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(عدم العقل والتمييز .. لا يحمد لحال من جهة نفسه ، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله مدح وحمد لعدم العقل والتمييز والعلم، بل قد مدح الله العمل والعقل والفقه ونحو ذلك في موضع وذم عدم ذلك في مواضع) [(١)].

ولهذا نجد أن الله قد مدح وأثنى على أصحاب العقول السليمة التي أحسن أصحابها استخدامها فهداهم الله بها إلى الحق قال تعالى: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمران: ١٩٠] .

وأصحاب العقول السليمة لم تعارض شرع الله ودينه ، وإنما وقفت عند حدودها التي حدّها الله لها ، فلم تنتهك حرمة النصوص ، ولم تغفل تدبرها وفهمها ، فهنا لا إفراط ولا تفريط فهي التي عرفت الحق وصارت على الصراط المستقيم ولم تعارض .

---

(١) الاستقامة : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ،المحقق: د. محمد رشاد سالم ،الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود – المدينة المنورة ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ ، ١٥٧/٢.

المطلب الثالث

مكانة العقل وأهميته بالإسلام

إن الإسلام اهتم بالعقل اهتماماً بالغاً فجعله مناط التكليف حيث لا يقع التكليف على غير القادر، المدرك لما كلّف به وبغير العقل لا يكون إدراك، ولا تجتمع إرادة، ولا تتحرك قدرة وإذا كان الإنسان هو الكائن الذي أوتي عقلا وإدراكا من بين الكائنات، فقد كان هو الكائن الذي اختصّ بالتكليف، وبحمل أمانة ما كلّف به، فالعقل هو المتلقي لتلك الأمانة التي عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها(١).

بل جعله الإسلام أحد الضروريات الخمس التي أمر الشارع بحفظها ورعايتها، لأن مصالح الدين والدنيا مبنية على المحافظة عليها(٢).

والعقل الذي تجرد من الهوى وتخلص من التقليد، ولم يتأثر بالآراء والأفكار المنحرفة التي تدفعه للوقوع في الضلال ، كما أنه لم يعطل قواه بإتباع أعمى فينجر إلى الانحراف والهوى، فهذا هو العقل الذي يمكنه أن يحمل رسالة الإسلام ويطبقها تطبيقا صحيحاً، ومنقادا لتكاليف الإسلام ، منفذا أوامره ، ومنتهياً عن نواهيه . وأحكام الإسلام كلها معقولة وواضحة وضوح الشمس لم تخاطب إلاَّ العقل ، ولم توجه إلاَّ إليه، فحث الإسلام العقل على التفكير والتدبر والتبصر ونهاه عن التقليد والخضوع

---

(١) يُنظر : التفسير القرآني للقرآن: لعبدالكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) ، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة ،١١/ ٧٦٢ .

(٢) يُنظر : الاعتصام : لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ) ، تحقيق ودراسة: ج١: د. محمد بن عبدالرحمن الشقير ، ج٢: د سعد بن عبدالله آل حميد ، ج٣: د هشام بن إسماعيل الصيني ،الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م ، ٣٨٧/١.

الأعمى للسادة والكبراء ، ووجه الدعوة إليه دون وسائل الضغط والشدة والقصر والإكراه[١].

والقرآن والسنة مملوآن بالأدلة العقلية التي تقصر عنها عقول أهل الكلام والفلسفة، فالله سبحانه وتعالى قد ضمن كتابة العزيز من الأدلة العقلية والحجج البينة الباهرة والأقيسة التي هي الأمثال المضروبة ما يتضح لكل ذي عقل ، فخاطب بذلك أولي الألباب والنهى، ومن يعقل ويسمع ، فضمنه سبحانه وتعالى من الأدلة العقلية ما أخبر به عن نفسه وأسمائه وصفاته، وأمر المعاد، وثبوت الأوامر والنواهي والوعد والوعيد[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(قد تدبرت عامة ما يذكر المتفلسفة والمتكلمة، والدلائل العقلية فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر، وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها، وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها) [٣].

وقال أيضا: (فقد تبين أن ما عند أئمة النظار أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية، فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه مع تنزهه عن الأغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فإن خطأهم فيها كثير جدا ولعل ضلالهم أكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا

---

(١) يُنظر : لمحات في وسائل التربية الإسلامية – وغايتها ، للدكتور محمد أمين المصري ، دار الفكر، ص١٢٣ – ١٢٧.

(٢) يُنظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ، المحقق: مجموعة من المحققين ،الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ـ الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ ، ١ / ٢٤٦ – ٢٤٧.

(٣) مجموع الفتاوى : ١٩ / ٢٣٢ – ٢٣٣.

قال أبو عبدالله الرازي في آخر عمره في كتابه " أقسام الذات ": (لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا) [١].

وقد جاءت البراهين العقلية في القرآن الكريم في أعظم المطالب الإلهية: ففي الدلالة على توحيد الله وتفرده بالعبادة دون سواه ، خاطب الله أصحاب العقول مبيناً لهم بطلان الآلهة التي اتخذت من دونه فقال تعالى: ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾ [الحج: ٧٣] .

فهذه الآلهة التي عبدت مع الله (عز وجل) آلهة ضعيفة عاجزة لا تملك لعابديها نفعاً ولا ضراً ، فإذا كان الذباب وهو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبدوه من دون الله على خلق مثله، ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأرباباً مطاعين ، وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين[٢].

وقال تعالى منبها على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار، وما بين ذلك، ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ [غافر: ٥٧] [٣].

والعلوم والأعمال التي يستفيد منها الخلق نوعان : نوع يحصل بالعقل كعلم الحساب والطباعة والصناعة والحياكة وغير ذلك ونوع لا يعلم بمجرد العقل : كالعلوم

---

(١) مجموع الفتاوى ، ٩ /٢٢٥ .

(٢) يُنظر : الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبدالله محمد بن احمد لأنصاري القرطبي ، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني ، الطبعة –الثانية ، ١٢ / ٩٧.

(٣) يُنظر : تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ،المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ،الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م ، ٥٩٥/٦ .

الإلهية، وعلوم الديانات، وهذه منها ما يمكن أن يقام عليه أدلة عقلية، والرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين هدوا الخلق وأرشدوهم إلى دلالة القدرة عليها، وهي عقلية شرعية [١].

المطلب الرابع

الشرع والعقل غير متعارضين

لقد وضع علماء الكلام قاعدة عامة سموها قانوناً كلياً يرجع إليه في جميع أمور الدين، فقالوا : (إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية، أو النقل والعقل فإما أن يجمع بينهما وهو محال، لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يردا جميعاً، وإما أن يقدم السمع وهو محال، لأن العقل أصل النقل، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، فوجب تقديم العقل، ثم النقل) [٢].

قلت: فبهذه القاعدة الباطلة استطاع هؤلاء أن يردوا نصوص الوحي الثابتة ويجعلوا منها حكما وسلطانا فيقبلون ما تقره عقولهم ويرفضون ما رفضته .

ولم تعارض الشريعة العقول قط أو تخالفها لأن كل ما فيها يوافق العقل، قال ابن القيم : (والمعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجوداً وعدماً، فلم يخبر الله ورسوله بما يناقض صريح العقل، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل) [٣].

---

(١) يُنظر : مجمع الفتاوى ٤ / ٢١٠ ، ٢١١.

(٢) أساس التقديس في علم الكلام: لأبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) ،الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م ، ص ١٧٢ ، ١٧٣.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ،تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم ،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ،الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، ٢ / ٤٠.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟ ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته) [١].

ويُنظر الى كلام ابن القيم حيث يقول:(والسمع الصحيح لا ينفك عن العقل الصريح، بل هما أخوان وصل الله تعالى بينهما) [٢].

فكيف يجوز أن يقال: إن في كتاب الله وسنة رسوله(ﷺ) الصحيحة الثابتة عنه ما يعلم زيد وعمرو بعقله أنه باطل؟ وأن يكون كل من اشتبه عليه شيء مما أخبر به النبي(ﷺ) قدم رأيه على كلام الرسول (ﷺ) في أنباء الغيب التي ضل فيها عامة من دخل فيها بمجرد رأيه، بدون الاستهداء بهدي الله، والاستضاءة بنور الله الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه، مع علم كل أحد بقصوره وتقصيره في هذا الباب[٣].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ، ١/ ١٤٧.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ،مؤلف الأصل: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ،اختصره: محمد بن محمد بن عبدالكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ،المحقق: سيد إبراهيم ،الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٨١.

(٣) يُنظر : درء تعارض العقل والنقل ، ١/١٥٥.

وعلى المعتزلة الذين حكموا عقولهم في نصوص الوحي ومن سار على نهجهم وتتبع خطاهم ، أن يعلموا أنه لا يوجد حديث واحد على وجه الأرض يخالف العقل إلاَّ أن يكون ضعيفاً أو موضوعاً، بل لا يعلم حديث صحيح في الأمر والنهي أجمع المسلمون على تركه إلاَّ إذا كان منسوخاً ، بل لا يعلم حديث أجمعوا على نقيضه، فضلاً أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البين لعامة العقلاء ، فإن ما يعلم بالعقل الصريح أظهر مما لا يعلم إلا بالإجماع [١].

وعلى هؤلاء أن يخالفوا هذه القاعدة ، فالشرع والعقل إذا تعارضا عندهم ، كان لزاما عليهم تقديم الشرع ، لأن العقل مصدق له في كل ما أخبر به ، وأما الشرع فلا يستلزم منه تصديقه في كل ما أخبر به ، وإن صدق الشرع لا يكون موقوفا على كل ما يخبر به العقل[٢]، علماً بأن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح[٣].

ورحم الله الإمام ابن القيم عندما قال :

(إذا تعارض النقل وهذه العقول أخذ بالنقل الصحيح ، ورمي بهذه العقول تحت الأقدام ، وحطت حيث حطها الله وأصحابها) [٤].

---

(١) يُنظر : درء تعارض العقل والنقل ، ١/١٥٠ ، ١٥١.

(٢) يُنظر : المصدر أعلاه : ١٣٨.

(٣) يُنظر : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه : لأبي أحمد محمد أمان ابن علي جامي علي(المتوفى: ١٤١٥هـ)، الناشر: المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ ، ص٢٥.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة : ص ١٠٧.

المبحث الثاني
العقل وانقياده للشرع وموقف الصحابة والسلف الصالح منهما

ويتضمن ثلاثة مطالب

المطلب الأول : انقياد العقل للشرع

المطلب الثاني : موقف الصحابة من الشرع والعقل

المطلب الثالث: موقف السلف الصالح من الشرع والعقل

المطلب الأول
انقياد العقل للشرع

لقد بعث الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وجعله خاتم الأنبياء ، وإمام الأتقياء ، فأقام به الملة بعد اعوجاجها ، وأوضح به الحجة بعد اندثارها ، فأرسله كافة للناس بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وقد أغلق الله (جل وعلا) جميع الطرق إلاَّ طريقاً واحداً هو الموصل إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] . والرسول(ﷺ) هو الدليل الهادي إلى هذا الصراط كما قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] .وقد ألزم الله العباد بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر والانتهاء عما نهى عنه وزجر وألا يعبد الله إلاَّ بما شرعه على لسانه(ﷺ) .

فالواجب على كل مسلم كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارض خبره برأي أو قول باطل نسميه معقول .

قال الطحاوي : (ولا تثبت قدم الإسلام إلاَّ على ظهر التسليم والاستسلام) [١].

قلت : لا يثبت إسلام من لم ينقاد ويخضع ويسلم لنصوص الكتاب والسنة النبوية، وينقاد إليهما، ولا يحق لأي أحد أن يعترض عليهما، ولا يعارضهما برأي أو عقل فإتباعهما واجب على كل مسلم وعلى العقل الإنصياع لأوامر الشرع .

قال ابن شهاب :(من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم) [٢].

ويُنظر الى هؤلاء المقدمين عقولهم على الوحي خاضعون لأئمتهم وسلفهم مستسلمون لهم في أمور كثيرة يقولون هم أعلم بها منا وعقولهم أكمل من عقولنا فليس لنا أن نعترض عليهم، فكيف يعقل أن يعترض على الوحي بعقل قاصر مشتمل على العلم والظن والوهم على الوحي الذي كله حق، فقضايا العقل لا شك أنها معرضة للخطأ ، فكيف تقاس وتساوى بقضايا مأخوذة عن خالق العقل[٣].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : لصدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م ص ٢٠١ .

(٢) خلق أفعال العباد: لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبي عبدالله ،المحقق: د. عبدالرحمن عميرة ، الناشر: دار المعارف السعودية – الرياض ، ٧٦/١.

(٣) يُنظر : الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة : لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله ، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ : ٣/ ٨٩٤.

المطلب الثاني

موقف الصحابة من الشرع والعقل

قبل أن نتكلم عن موقف الصحابة من الشرع والعقل تتبادر الى أذهاننا أسئلة عديدة منها كيف كانوا يتلقون الوحي من رسول الله(ﷺ) ؟ وهل كانوا يعارضونه بعقولهم وآرائهم أم كانوا ينقادون له ويستسلمون له ويصدقون بأخباره ؟ وهل كانوا يدفعون من النصوص ما رفضته عقولهم ؟ وهل كانوا يقدمون العقل عليها ؟ .

والجواب عن ذلك نقول أن العقل لا يجب أن يتقدم بين يدي الشرع ، فإنه من التقدم بين يدي الله ورسوله ، وهذا هو مذهب الصحابة رضي الله عنهم الذي عليه دأبوا ، وإياه اتخذوا طريقاً الى الجنة فوصلوا، ولم ينكروا ، بل أقروا وأذعنوا لكلام الله وكلام رسوله (ﷺ)، ولا عارضوه بمعقول أو إشكال، ولو كان هذا قد حدث من قبلهم لنقل إلينا ، فلما لم ينقل دل على أنهم آمنوا به وأقروه[١]. وقال الشاطبي : (والرأي إذا عارض السنة فهو بدعة وضلالة، وأن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم رضي الله عنهم لم يعارضوا ما جاء في السنة بآرائهم، علموا معناه أو جهلوه، جرى لهم على معهودهم أو لا وهو المطلوب من نقله، ليعتبر به من قدم الناقص وهو العقل على الكامل وهو الشرع، ورحم الله الربيع بن خثيم حيث يقول:(يا عبد الله، ما علمك الله في كتابه من علم فاحمد الله، وما استأثر عليك به من علم فكله إلى عالمه، ولا تتكلف) [٢]. **قلت** : وقد أكتفوا رضوان الله عليهم بما جاءهم عن رسول الله (ﷺ) لعلمهم أن الحق فيه ووفقهم الله للعمل به ، فنشروا دين الله في الأرض صافياً من الشكوك والأوهام وما ترجحه العقول وكانوا يبغضون اعتراض الشرع بالآراء والعقل،

(١) يُنظر : الاعتصام ، ٢٩٩/٣.
(٢) المصدر أعلاه : ٣/ ٣٠٤ ، ٣٠٥.

لأنهم يعلمون أنه ينافي الإيمان والطاعة والإذعان لأوامر سيد الخلق(ﷺ)، ولهذا نراهم قد ضربوا لنا الأمثلة للانقياد لأوامر الشرع وعدم مخالفتها بما قد تؤول أو ترجح لهم عقولهم . قال سهل بن حنيف رضي الله عنه: (يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله (ﷺ) لرددته) [١]. كذلك كانوا يوقرون ويعظمون ويفضلون كلام رسول الله(ﷺ) على كل قول أو رأي ويقدمونه على كل قول بعد القرآن مهما كانت منزلة صاحبه ، وإذا بلغ أحدهم حديث ما كان يدعه لقول بشر قط ، وما كانت تأخذهم في ذلك لومة لائم . فقد ذكر الإمام مسلم في صحيحه فقال : حدثني حرملة بن يحيى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، قال: أخبرني سالم بن عبدالله، أن عبدالله بن عمر قال:(سمعت رسول الله(ﷺ) يقول: ((لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها)) قال: فقال بلال بن عبدالله: والله لنمنعهن، قال: فأقبل عليه عبدالله: فسبه سبا سيئا ما سمعته سبه مثله قط وقال:" أخبرك عن رسول الله (ﷺ) وتقول: والله لنمنعهن) [٢]. كما روى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس، قال: (تمتع رسول الله (ﷺ) فقال عروة: نهى أبوبكر، وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: ما يقول عرية؟ قال: يقول: نهى أبوبكر، وعمر عن المتعة، فقال: أراهم سيهلكون، أقول: قال رسول الله (ﷺ) ويقولون : قال أبوبكر، وعمر) [٣]. وروى

---

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسننه وأيامه، صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي ، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ: ١٠٣/٤برقم(٣١٨١) ، والمسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري ، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي ،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت: ٣/ ١٤١٢ برقم (١٧٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، ١/ ٣٢٧ ، برقم (٤٤٢).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ،المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون: مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٢١هـ ، ٢٢٨/٥ برقم (٣١٢١).

الإمام البخاري فقال : حدثنا مسدد، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن عربي، قال: سأل رجل ابن عمر رضي الله عنهما عن استلام الحجر، فقال: ((رأيت رسول الله (ﷺ) يستلمه ويقبله)) قال: قلت: أرأيت إن زحمت، أرأيت إن غلبت، قال: اجعل أرأيت باليمن، ((رأيت رسول الله (ﷺ) يستلمه ويقبله)) [١]. كذلك روى البخاري ومسلم : (أن قريبا لعبدالله بن مغفل خذف، قال: فنهاه، وقال: إن رسول الله (ﷺ) نهى عن الخذف، وقال: ((إنها لا تصيد صيدا، ولا تنكأ عدوا، ولكنها تكسر السن، وتفقأ العين)) ، قال: فعاد، فقال: أحدثك أن رسول الله (ﷺ) نهى عنه، ثم تخذف، لا أكلمك أبدا) [٢]. وكان بعض الصحابة إذا أشكل عليه نصا من النصوص عرضه على النبي (ﷺ) فيجيبه عليه، وكانوا يسألونه عن الجمع بين النصوص، ويعرضون التي يوهم ظاهرها التعارض عليه (ﷺ)، ولم يكن أحد منهم يورد عليه (ﷺ) معقولا يعارض النص البتة، ولا عرف عن أحدهم، وهم أكمل الأمة عقولا، أنه عارض نصا بعقل[٣]. وانظر إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سمعت رسول الله(ﷺ) يقول: ((ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلاَّ هلك)) فقلت: يا رسول الله: أليس قد قال الله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾[الانشقاق:٧، ٨]، فقال رسول الله(ﷺ):((إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلاَّ عذب)) [٤].

(١) أخرجه البخاري ، ٢/ ١٥١ برقم (١٦١١).
(٢) أخرجه البخاري : ٨٦/٧ ، برقم (٥٤٧٩) ، ومسلم واللفظ له : ٣/ ١٥٤٨. برقم (١٩٥٤).
(٣) يُنظر : مختصر الصواعق المرسلة ، ص ١٦٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : ١١٢/٨ برقم(٦٥٣٧).

فهنا أشكل عليها الأمر، ثم بين لها النبي(ﷺ) أنه لا تعارض بين النصين وأن الحساب اليسير هو العرض الذي لا بد أن يبين الله فيه لكل عامل عمله[١].

وروى الإمام مسلم فقال : حدثني هارون بن عبد الله، حدثنا حجاج بن محمد، قال: قال ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله، يقول: أخبرتني أم مبشر، أنها سمعت النبي(ﷺ)، يقول عند حفصة: ((لا يدخل النار، إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها)) قالت: بلى، يا رسول الله فانتهرها، فقالت حفصة: قال تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم: ٧١] فقال النبي(ﷺ): ((قد قال الله عز وجل:﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾)) [مريم: ٧٢] [٢].

وهنا نرى بأن الجمع بين النصين قد أشكل على حفصة وكانت تظن بأن معنى كلمة الورود هو دخولها، كما يقال: فلان ورد المدينة إذا دخلها، فبين لها النبي (ﷺ) بأن ورود المتقين غير ورود الظالمين، فإن المتقين يردونها ورودا ينجون به من عذابها؛ والظالمين يردونها ورودا يصيرون جثيا فيها[٣].

وروى الإمام أحمد في مسنده فقال : حدثنا عبدالله بن نمير، قال: أخبرنا إسماعيل، عن أبي بكر بن أبي زهير، قال: أخبرت أن أبا بكر قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية:﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء: ١٢٣] فكل سوء عملنا جزينا

(١) يُنظر : مختصر الصواعق المرسلة ، ص ١٦٩.

(٢) أخرجه مسلم، ٤ /١٩٤٢ برقم (٢٤٩٦)، والسنن الكبرى: لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب، النسائي المحقق: حسن عبدالمنعم شلبي : مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط١، ١٤٢١هـ ، ١٠ /١٧٠(١١٢٥٩).

(٣) يُنظر : مختصر الصواعق المرسلة ، ص ١٦٩.

به، فقال رسول الله (ﷺ): ((غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء)) [١]

قال: بلى. قال : ((فهو ما تجزون به)) [٢]. كذلك أشكل في هذه الآية على أبي بكر الصديق النجاة منها وظن بأن الجزاء لابد منه في الآخرة فبين له النبي (ﷺ) بأن جزاءه وجزاء المؤمنين هو ما يصيبهم من النصب والحزن والمشقة نتيجة ما يعملونه من السوء في الدنيا فهذه كفارة لسيئاتهم وليس هنالك عقاب عليها في الآخرة[٣]. وفي الحديث الطويل الذي رواه الإمام البخاري وفيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أتيت نبي الله (ﷺ) فقلت: ألست نبي الله حقا، قال: ((بلى)) ، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل، قال: ((بلى)) ، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: ((إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري)) ، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: ((بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام))، قال: قلت: لا، قال: ((فإنك آتيه ومطوف به)) [٤].

---

(١) اللأواء : هي الشدة وضيق المعيشة ، يُنظر : مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار: لجمال الدين محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي ،الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة: الثالثة، ١٣٨٧ هـ – ١٩٦٧م ،٤٥٨/٤ ، والمنتخب من غريب كلام العرب: لعلي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبي الحسن الملقب بـ «كراع النمل» ، المحقق: د محمد بن أحمد العمري: جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ، ٢٥٩/١.

(٢) أخرجه احمد في مسنده : ١ / ٢٢٩–٢٣٠ برقم (٦٨) ، حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه بين أبي بكر بن أبي زهير وبين أبي بكر الصديق، ثم إن أبا بكر بن أبي زهير مستور لم يذكر بجرح ولا تعديل ، وإسماعيل: هو ابن أبي خالد.

(٣) يُنظر : مختصر الصواعق المرسلة ، ١٧٠/١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه : ١٩٣/٣ برقم (٢٧٣١).

كذلك أشكل على عمر بن الخطاب رجوعهم عام الحديبية ولم يدخلوا المسجد الحرام، وعدم الطواف بالبيت، فأزال له النبي(ﷺ) ذلك الإشكال، وأن الطواف لم يكن يقصد به في نفس عام الحديبية لأن اللفظ كان على الإطلاق لا التقييد [١].

كذلك روى الإمام البخاري فقال: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة ، عن عبدالله (رضي الله عنه) ، قال: (لما نزلت هذه الآية :﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله (ﷺ)، وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم)؟ فقال رسول الله (ﷺ) : ((إنه ليس بذاك ، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه:﴿ إن الشرك لظلم عظيم))[لقمان: ١٣] [٢].

وقد أشكل على الصحابة معنى الظلم والمراد منه في الآية الكريمة حيث كانوا يظنون أن ظلم النفس داخل فيه ، وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان لم يكن آمنا ولا مهتديا، فوضح لهم النبي (ﷺ) ذلك اللبس والإشكال وأزاله من أذهانهم [٣].

قلت: لقد أشكل على أبي بكر وعمر والصحابة رضي الله عنهم وكان رسول الله (ﷺ) يزيل ذلك الإشكال من أذهانهم نتيجة ما قد توصلوا اليه من فهم للنصوص، وكذلك عائشة وحفصة رضي الله عنهما لم يعترضا على النص بعقليهما ورأيهما، وإنما أوهم في ذهنهما أنه يخالف ما في الآية فاستفسرتا من رسول الله (ﷺ) رجاء أن يزيل الإشكال من ذهنهما، إلا أنهم لم يعترضوا على نصوص الشرع بعقولهم أو أن يردوها بآرائهم، فأين هؤلاء الذين جعلوا من نصوص الشرع ألعوبة تتقاذفها العقول ، وتتحكم

---

(١) يُنظر : مختصر الصواعق المرسلة ، ١/١٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه : ٦/ ١١٤ برقم (٤٧٧٦).

(٣) يُنظر : مختصر الصواعق المرسلة ، ١/١٧٠.

فيها الآراء والأهواء ، من أصحاب رسول الله(ﷺ) الذين عظم في نفوسهم حب حديثه (ﷺ) وهانت عليهم عقولهم أن يقدموها عليه، بل إنهم لا يرضون ترك سنة كان عليها رسول الله(ﷺ)، كذلك كانوا يعظمون حديث رسول الله(ﷺ) ويقفون عنده ولا يتعدونه، وينصاعون له ويلتزمون به مع سعة علمهم، ورجاحة عقولهم، وصفاء أذهانهم حتى رفع الله منزلتهم رضي الله عنهم أجمعين .

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب النبي (ﷺ) إنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها أخلاقا اختارهم الله (عز وجل) لصحبة نبيه(ﷺ) وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم) [١].

كذلك لم يسألوا رسول الله(ﷺ): لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورا، بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته [٢].

فهذا هو منهج الصحابة رضي الله عنهم في التعامل مع الوحي لم يكونوا يعارضوه بأي شكل من الأشكال لا برأي ولا بعقل، ولم يجعلوا من العقل سلطانا على

---

(١) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: لإسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبي القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ) ، المحقق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي ، الناشر: دار الراية – السعودية / الرياض ،الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م، ٥١٩/٢ برقم (٤٩٨).

(٢) يُنظر : شرح العقيدة الطحاوية : ص٢٦١.

نصوص الشرع مع سعة فهمهم وإدراكهم ورجاحة عقولهم، بل كانوا مستسلمين ومنقادين ومتبعين لأوامر السماء، وبالمقابل لم ينكروا العقل بل استخدموه بالتفكر ولفهم مراد الله ورسوله(ﷺ) عن طريق فهم الكتاب والسنة وليس معارضتهما أو ردهما، وأما المعارضون للشرع بعقولهم فهمهم أن يقحموا هذه العقول بين ثنايا النصوص لاستكشاف الحكم، فإن عجزوا عن الوصول إلى ذلك سارعوا بردها، وحجتهم أنها تخالف الواقع والحس والمشاهدة فيقوموا بمعارضة نصوص الشرع وردها وذلك بتقديم ما ترجحه آراءهم وعقولهم .

المطلب الثالث

موقف السلف من الشرع والعقل

كذلك سار السلف الصالح من التابعين والأئمة رضوان الله عليهم على منهج الصحابة رضوان الله عليهم في الاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما ، وعدم معارضتهما بآراء وشبه وعقول وأوهام ، بل يجعلون كلام الله ورسوله هو الأصل الذي يعتمد عليه ويرد ما يتنازع فيه الناس إليه، فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلاً، ونصوص الوحي أكبر وأعظم في صدورهم من أن يقدموا عليها ألفاظا مجملة لها معان مشتبهة [١].

وفي المقابل كانوا لا ينكرون العقل والتوصل به إلى المعارف، والتفكير به في خلق السموات والأرض وفي الآيات الكونية الكثيرة ، ولكنهم لا يسلكون في استعمال العقل الطريقة التي سلكها علماء الكلام في الاستدلال بالعقل وحده في المطالب الإلهية

(١) يُنظر : الصواعق المرسلة ٣/٩٩١، ٩٩٢.

من محاولة الاكتفاء به أحياناً، أو تقديسه بحيث يقدمونه على كلام الله خالق العقل والعقلاء، وعلى سنة رسوله(ﷺ) التي هي وحي الله[١].

ولهذا كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله ورسوله(ﷺ) هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه، فيثبتون ما أثبته الله ورسوله(ﷺ) وينفون ما نفاه الله ورسوله(ﷺ)[٢].

قال الشافعي: (أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله (ﷺ) لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس)، وتواتر عنه أنه قال: (إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط)، وصح عنه أنه قال: (إذا رويت عن رسول الله (ﷺ) حديثا ولم آخذ به فاعلموا أن عقلي قد ذهب)، وصح عنه أنه قال: (لا قول لأحد مع سنة رسول الله(ﷺ)) [٣] .

كما جاءت عنهم الآثار في ذم الرأي المعارض للحديث ، وتحذر من معارضة السنة بالعقل، كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الناس:(إنه لا رأي لأحد مع سنة رسول الله (ﷺ)) [٤].

وقال الأوزاعي :(عليك بآثار من سلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوا لك القول) [٥].

---

(١) يُنظر : الصفات الإلهية ، ص ٥٨.

(٢) يُنظر : درء تعارض العقل والنقل ١/٧٦.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ٢/ ٢٠١.

(٤) الشريعة : لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ) ،المحقق: الدكتور عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي ،الناشر: دار الوطن – الرياض / السعودية ،الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م ، ١/٤٢٣ /١٠٧.

(٥) المصدر أعلاه ، ١/٤٤٥ /١٢٧ .

وبالرغم من هذا التوجه والتحذير من قبل علماء الأمة بعدم معارضة السنة النبوية بالرأي إلا انه ظهرت طوائف عارضت الوحي بعقولها وآرائها وأكثر هذه الطوائف لا يعرف الحديث ولا يسمعه وكثير منهم لا يصدق به إذا سمعه، وأنهم ينقسمون الى خمس طوائف:

١-طائفة عارضته بعقولهم في الخبريات وقدمت عليه العقل فقالوا لأصحاب الوحي لنا العقل ولكم النقل.

٢-وطائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم فقالوا لأهل الحديث لكم الحديث ولنا الرأي والقياس .

٣- وطائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم وقالوا لكم الشريعة ولنا الحقيقة.

٤- وطائفة عارضته بسياساتهم وتدبيرهم فقالوا أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة.

٥-وطائفة عارضته بالتأويل الباطن فقالوا أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن [١].

وهنا أخص بذكر الطائفة الأولى التي قدست العقل وأعطته سلطاناً يتحكم في الشرع ويعترض عليه، ومن نحا منحاهم في رد النصوص بالعقل كالمستشرقين الذين سقطوا في براثن الحضارة الغربية، وانبهروا بوميضها الكاذب فانعكست أمامهم الموازين، وتشعبت عليهم السبل، وانطفأت أمامهم أنوار الهدى ولا شك أنهم وقعوا في مزالق خطيرة بسبب هذا النهج الخاطئ ، فظلوا في ظلام دامس لو أخرج أحدهم يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

(١) يُنظر : الصواعق المرسلة ٣ / ١٠٥٠- ١٠٥١.

الخاتمة

من خلال الرحلة في هذا الموضوع توصلت الى النتائج الآتية :

١- إن الدين الإسلامي قد منح العقل مكانة ومنزلة رفيعة بدليل أنه لم ينقص من شأنه أو قيمته في أي أمر من الأمور .

٢- لم يكن هنالك إنكار للعقل من قبل الصحابة أو غيرهم وبغير العقل لا يكون إدراك ولهذا كان هو السبيل الوحيد لمعرفة وفهم مراد الله ورسوله(ﷺ) عن طريق الكتاب والسنة .

٣- الصحابة ومن بعدهم كانوا منقادين لأوامر الشرع ولم يعارضوا نصا برأي أو عقل مع سعة عقولهم وعمق مداركهم وفهمهم .

٤- رد نصوص السنة بالعقل أمر في غاية الخطورة وهو بلا شك لا يخدم سوى أعداء الإسلام .

٥- العقول مختلفة فكيف يجعل منها حكما وسلطانا على الوحي .

٦- العقول السليمة لا يمكن لها أبدا أن تخالف النصوص الصحيحة .

٧- استسلام العقل لنصوص الوحي واجب .

٨- عدم تقديم ما ترجحه العقول على النصوص الشرعية القرآنية والنبوية .

٩- كل كلام مهما كان قائله خالف النصوص الصحيحة الصريحة هو عبارة عن شبهات فاسدة.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١.أساس التقديس في علم الكلام: لأبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) ، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

٢.الاستقامة : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ، المحقق: د. محمد رشاد سالم ،الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود – المدينة المنورة ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ .

٣.الاعتصام : لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ) ، تحقيق ودراسة: ج١: د. محمد بن عبدالرحمن الشقير ، ج٢: د سعد بن عبدالله آل حميد ، ج٣: د هشام بن إسماعيل الصيني ، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .

٤.إعلام الموقعين عن رب العالمين: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ،تحقيق: محمد عبدالسلام إبراهيم ،الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ،الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٥.بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ،المحقق: مجموعة من المحققين ،الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ .

٦. تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ،الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م .
٧. التفسير القرآني للقرآن: لعبدالكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) ، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة .
٨. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسننه وأيامه = صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٩. الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبدالله محمد بن احمد لأنصاري القرطبي ، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني ، الطبعة الثانية .
١٠. الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: لإسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبي القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ) ،المحقق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي ، الناشر: دار الراية – السعودية / الرياض ،الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
١١. خلق أفعال العباد: لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبي عبدالله ،المحقق: د. عبدالرحمن عميرة ، الناشر: دار المعارف السعودية – الرياض .
١٢. درء تعارض العقل والنقل : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله ابن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) ، تحقيق: الدكتور محمد رشاد : جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية ،ط٢، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
١٣. السنن الكبرى: لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب، النسائي المحقق: حسن عبدالمنعم شلبي : مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط١، ١٤٢١هـ .

١٤. شرح العقيدة الطحاوية : لصدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة المصرية الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١٥. الشريعة : لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ) ، المحقق: الدكتور عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي ،الناشر: دار الوطن - الرياض / السعودية ،الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
١٦. الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه : لأبي أحمد محمد أمان ابن علي جامي علي (المتوفى: ١٤١٥هـ)، الناشر: المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ .
١٧. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة : لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله ، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ .
١٨. العقل والنقل عند ابن رشد : لأبي أحمد محمد أمان بن علي جامي علي ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ،الطبعة: السنة الحادية عشرة - العدد الأول - ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
١٩. اللأواء : هي الشدة وضيق المعيشة ، يُنظر : مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار: لجمال الدين محمد طاهر بن علي الصديقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي ، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الطبعة: الثالثة، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م .
٢٠. لمحات في وسائل التربية الإسلامية - وغايتها ، للدكتور محمد أمين المصري ، دار الفكر.

٢١. ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه : للحارث بن أسد المحاسبي، أبي عبدالله ، المحقق: حسين القوتلي : دار الكندي ، دار الفكر – بيروت ، الطبعة: الثانية، ١٣٩٨ .
٢٢. مجموع الفتاوى : لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني ، المحقق: عبدالرحمن بن محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ.
٢٣. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ،مؤلف الأصل: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ، اختصره: محمد بن محمد بن عبدالكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ،المحقق: سيد إبراهيم ،الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٢٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون: مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٢١هـ.
٢٥. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري ، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي ،الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢٦. المنتخب من غريب كلام العرب: لعلي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبي الحسن الملقب بـ «كراع النمل» ، المحقق: د محمد بن أحمد العمري: جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ،الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.